

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

نقدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، ومسست الحاجة إلى إعادة طبعه ، فيكون في متناول الراغبين في الاطلاع على مثل هذه الدراسة ، التي تتناول جانباً من أهم جوانب التفكير الفنى عند العرب .

وقد قرأ الذين أتيتحت لهم فرصة الاطلاع على الطبعة الأولى ذلك النهج السديد الذى سلكه قدامة لدراسة الشعر ونقده ، وما وضع من أسس يصلح أكثرها مقاييس لدراسة فنون الأدب بعمامة ونقدها ؛ لأنها فى الحقيقة لم تقتصر على فن الشعر ، بل تناولت أهم العناصر التى يقوم على أساسها العمل الأدبى ، سواء من ناحية الأفكار واختيارها وتنسيقها ، أو من ناحية أسلوب تأديتها ، والتأنق فى صوغها ، ليسكون عملاً فنياً له اعتباره فى نظر رجال الفن من الأدباء والنقاد . كما قرءوا تلك الأفكار التى أثارها قدامة فى ذلك الزمن البعيد ، واحتدى فيها إلى آراء بدت جديتها فى العصر الذى ظهرت فيه ، فى الوقت الذى تسار فيه أحدث الآراء ، ولا يزال كثير من الآراء والمقاييس التى بسطها قدامة تشغل بال المعاصرين من النقاد الشهود لهم بالفهم والتذوق لروح الأعمال الأدبية وطبيعة الأدب ، ووصلهما بالمجتمع والحياة الإنسانية .

إن قدامة في تاريخ النقد الأدبي محدود في مقدمة النقاد الموضوعيين ، وكتابه « نقد الشعر » هو الذى وضع أسس هذا النقد الموضوعى في تاريخ النقد العربى ، وهو الذى أشار إلى المنافذ التى يستطيع الناقد المنصف أن يطل منها على ما يريد من الأعمال الأدبية ، ويضع حداً للإسراف فى الإدلاء بالأحكام التى تنبعث من الذاتية والهوى ، ويحاول أن يجعل من النقد صناعة واضحة المعالم ، بينة الحدود .

وكانت ثقافة قدامة الواسعة العميقة ، كما كانت عقليته الناضجة ، هما السر فى هذا اللون من النقد الذى اعتبر فى وقت ما جديداً ، وعدّ فى وقت ما غريباً أيضاً . ذلك لأن قدامة لم يجر فى ركب أولئك الذين عرف الناس أفكارهم فى الشعر والأدب ، ولم يعتمد فى آرائه الصائبة غالباً على ما كانت تلوّكه الألسنة فى البيئة التى عاش فيها ، أو فيما قبلها ، كما كان ذلك شأن غيره من النقاد أو رواة النقد .

كما عالج قدامة كثيراً من مسائل النقد الكبرى التى يعنى بها النقد الأدبى المعاصر ، ومن بين هذه المسائل التى عنى بها مشكلة الفسكرة الأدبية والقالب الفنى ، وما ينبغى أن يجتمع فى كل منهما ، وما ينبغى أن يتحاشى فى كل منهما ، حتى ينتج العمل الأدبى الممتاز الذى يزهى الأديب بنسبته إليه ، ويحمد الناقد فيه ما يتطلبه من أسباب الإجابة والإتيان ، وما ينشده من المثل الفنية الرفيعة .

ومن تلك المسائل الكبرى التى يعنى بها النقد المعاصر أيضاً ، مسألة « حرية الأديب » فى التعبير عن عواطفه وأحاسيسه ومشاعره ، وصدقته فى وصف تجاربه ، وهى مسألة كان قدامة أول ناقد عالجها فى تاريخ النقد العربى ، وقال رأيه فيها بصراحة ووضوح ، وغير ذلك كثير من أصول النقد التى بسطناها فى كتابنا هذا .

وكل ذلك يعتمد على أساس سليم ، وأفكار واضحة ، ومنهج علمى منظم سديد . وكان هذا هو السبب فى مظاهر العناية بقدامة فى السنوات الأخيرة ، ونحن نجمع شتات تراثنا ، وننفذ عنه غبار الأحداث التى أَلَمَّتْ بأمتنا العزيزة ، وقدم منه

زاداً للقومية العربية الصاعدة في عهد نهضتها ووحدةها . وبدأ تقدير الجهود التي بذلتها قدامة في خدمة النقد الأدبي ، وتواتت الإشادة به ، والانتفاع بأرائه ، والإفادة من هذا الكتاب الذي أقدم اليوم طبعته الثانية ، وتلك الإفادة التي ظهرت آثارها في مجلّ ما كتب في النقد أو تاريخه ، بمد تأليف هذا الكتاب ونشره ، باللغة العربية ، وما كتب بلغات أخرى ، في رسائل جامعية ، أو في كتب منشورة .

وهي ظاهرة نقتبط بها ، لأنها تجعلنا نشعر أننا قدمنا في هذا المضمار شيئاً ذابالاً ، وأننا أثّرنا أفكاراً جديدة بالإنارة ، ونهّنا إلى كنز من كنوزنا الخبوءة . غير أن بعض الذين نهّلوا من دراستنا ، وأفادوا من جهودنا المفصلة في هذا الكتاب ، عزّ عليهم أن يعترفوا بأنهم مدينون لهذا الجهد ، وهو اعتراف لا يفض من شأنهم ، ولا يقلل من أهمية دراساتهم ، بل إنهم على العكس من ذلك كانوا يقدمون بهذا الاعتراف دليلاً على أمانتهم العلمية ، وتحوي الصدق والإنصاف فيما يكتبون ويؤلفون ، وهو مجلّ ما نطلبه من هذه الجهود التي نبذلها راضين في سبيل ما نؤمن به من عظمة هذه الأمة ، وسعة باعها في البحث والدرس .

ولكننا نجد في جهة أخرى عالماً من الأمانة والإنصاف ، ظهرت آثاره في طبعة أنيقة محققة بمطبعة ريل بمدينة ليدن سنة ونشرت في ١٩٥٦ لكتاب قدامة « نقد الشعر » قام عليها أحد فضلاء المستشرقين ، وهو الدكتور س . ا . بونيباكر S. A. Bonebakker الذي كتب لهذه الطبعة مقدمة وجيزة باللغة العربية ، وذكر فيها أنه اعتمد على كتابي هذا « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي » . وكتب دراسة أخرى مفصلة في نحو ثمانين صفحة باللغة الإنجليزية ، تناول فيها جهودنا في هذا الكتاب مشيداً بها ، ومُنَبِّهاً إلى خلاصة هذه الجهود التي بذلناها في الكشف

عن حياة قدامة وتقدير نقده ، ورأى أنها قد تكون بعيدة المنال على القارىء الأوروبى ، وكان فى هذا الصنيع ما فيه من دلالة على تأصل الروح العلمية الصحيحة التى تنشده الحق ، وتؤثر الصدق .

تلك بعض الأفكار التى عنّت لى وأنا أقدم الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذى أعتزّ به بقدر ما بذلتُ فيه من جهد ، وأنا أسأل الله أن يديم به النفع ، وأن يجعله خالصاً لوجه الفكرة العربية التى تؤمن بها ونعمل لها .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

برؤى الطيباندر

مصر الجديدة { ربيع الأول سنة ١٣٧٨ هـ
سبتمبر سنة ١٩٥٨ م

تقديم

بقلم العالم الجليل الأستاذ أحمد الشايب

- ١ -

نحن الآن في « دار العلوم » وقد دار الزمان دورته ، وصارت هذه الدار المباركة إحدى كليات الجامعة المصرية ؛ تأخذ برسومها ، وتمثل مناهجها وتحاول - كغيرها - أن تؤدي رسالتها ، وهي رسالة « مصرية ، إسلامية ، إنسانية » ، هي رسالة مصرية لأن « كلية دار العلوم الجامعية » تقوم على أرض مصرية وتستمد كيانها من هذا الوطن العزيز ، فلا بد أن تعنى بحضارته ، وتصل بين قديمه وحديثه ، وهي إسلامية لأن مصر الآن مستقر التراث الإسلامي ، لا من حيث مادته ومصادره فقط ، بل من حيث تمثله والقوامه عليه ، والأخذ بأسبابه ومقوماته ، وهي آخر الأمر رسالة إنسانية لأن الجامعة المصرية - ومنها كلية دار العلوم - جزء من هذه الجامعة العالية التي تخدم الحضارة الإنسانية في جميع عناصرها ، وبيئاتها ، وعصورها ، ومعنى ذلك كله أن كلية دار العلوم تقدمت لتحمل مسئوليتها في هذا المجال ، أو يجب عليها أن تستشعر هذه المسئولية الخطيرة ، وأن تحرص على تحملها وتحقيق أهدافها مادامت قد أخذت هذا الوضع الجامعي الحديث .

وأقول : هذا الوضع الجامعي الحديث ، لأن دار العلوم كانت من قبل مدرسة عالية تُعنى ، أكثر ما تُعنى ، بتخريج المدرسين للأدب العربي والشريعة الإسلامية ، في معاهد الحكومة ومدارسها ، وتوسل إلى ذلك بتيسير هذه المواد ومناهجها ، فيعكف أساتذتها وطلابها على استخراج المعارف من مصادرها القديمة ، وتنسيقها ، وعرضها في أسلوب سهل ، واضح ، تطبيقي ، يستسيغه الطلاب ، ويستوعبون ما يتضمنه من مواد ، ثم يتقدمون إلى تلاميذهم بصورة أكثر يسراً ، وأسهل عرضاً ، ومعنى ذلك أن دار العلوم كانت في مهنتها ، تتجه من أعلى إلى أدنى ، ومن العُسر إلى اليسر ، واستطاعت بذلك أن تخدم الشرق العربي خدمات تستعصى على النسيان أو الإنكار .

أما الآن ، فقد انعكست الآية ، ووجب على « كلية دار العلوم » أن تتجه من أدنى إلى أعلى ، وأن تسلك سبيل التيسير لا التيسير ، وأن تجعل هدفها تخريج الأساتذة لا المدرسين ، وإعداد الباحثين لا الموظفين ، وإنما أعنى أن تشق على نفسها ، فتدرس المصادر الأصلية للمواد ، بعد أن تحققها وتنشرها نشرًا علميًا ، ثم تفرق في نقدها ، وتصدر على متونها وشروحاتها وحواشيها لعلها تجد - - - وستجد حتماً - ما يدعو إلى تعديلها ، أو تهذيبها ، أو نقضها أحياناً . وهي ، إذ تفعل ذلك ، مضطرة أن تصطنع مناهج البحث العلمي وهي مناهج عسيرة ، متنوعة ، تنصب على الجوانب الفنية ، والتاريخية ، والنفسية وتتطلب أناة وتوثيقاً ، وتنتهى بلا شك إلى عرض المواد عرضاً جديداً ، أو إلى وضعها من جديد .

بهذا الروح ، وذلك النهج ، تستقبل كلية دار العلوم حياتها الجامعية وقد استقبلتها منذ حين ، فوجدت تراثاً إسلامياً متراكماً جليلاً ، وحضارة مديدة العهد ، كثيرة الصور ، مشتجرة الفروع ، وتبينت أن هذه الحضارة لا بد أن تدرس من جديد ، وأن تدرس دراسة طويلة ، عريضة ، عميقة ، وعليها أن تتوسل بذلك القديم إلى الجديد ، فتعرف ما تأخذ وما تدع وما تضيف وما تبتكر ، لتصل الماضي بالمستقبل ، وتكون لها شخصيتها المتميزة بين كليات الجامعة المصرية أو بين المعاهد العلمية ، ولكم رجوت - ولا زلت أرجو - أن تنشأ في كلية دار العلوم عدة أقسام تتقاسم فيما بينها مواد هذه الحضارة الإسلامية ليدرس كل قسم جانباً منها دراسة متخصصة مثمرة ، ثم تتكون من هذه الدراسات وحدة علمية قوية متماسكة ، قسم للغة العربية وآدابها ، وثان للشريعة الإسلامية ، وثالث للتاريخ الإسلامي ، ورابع للفلسفة الإسلامية ، وخامس للغات الشرقية من إسلامية وسامية ، وهكذا بحيث تستوعب الأقسام عناصر حضارتنا ومقوماتها ، وتصبح كليتنا بذلك مقر هذه الدراسات الفذ ، ومقصد طلابها من أنحاء الأرض . وحتى يتم ذلك في دار العلوم أوفي غيرها ، وبهذا الوضع أو بسواه ، نرى أنه تبين لكلية دار العلوم أن عليها استئناف الدرس بأفق واسع وأمل وثاب وجهد دائب . عليها أن تعيد النظر في البلاغة والنقد الأدبي ، فتدرسهما درساً تاريخياً ، فنياً ، مقارناً . ولعلها تنتهي من ذلك إلى وضع هذين العلمين وضعاً جديداً يريح الدارسين من اضطراب القديم وتركيبه ، ويرشدهم إلى قدر الأدب وتحليله وتفسيره ، ويصل بين هذين العلمين وبين ما يسندهما من علوم النفس ، والجمال ، والاجتماع ، ثم الفلسفة . كما عليها أن تطيل الوقوف عند النصوص الأدبية فتحققها ، وتنشرها مشروحة ، وتعرضها في نسق

زمنى ، وموضوعى ، بحيث يرى القراء فيها صور الأدب فى العصور المتوالية والبيئات المختلفة ، وبحيث يرون أدبا مثقفا جيلا ، يفتدو العقل والشعور ، وحينئذ يتقدم تاريخ الأدب ليجد فى هذه النصوص مجاله العتيد ، ويقيم وصفه وتفسيره على قواعد ثابتة متينة لا تتعرض للشك والتجريح . ولا بد أن تتمدد كراسى الأدب وتاريخه ، وتوزع بين القديم والوسيط والحديث ، بل لا بد أن يكون لبعض البيئات - كالأندلس - كرسية الخاص .

أما النحو ، فعلى الرغم من فضجه واحتراقه كما يقال ، فقد بدا لدار العلوم أن تدرس أصوله ، وتنشر مصادره ، وتميز مدارسه ، وتصله بالدراسات النفسية والاجتماعية ، لعلها تجد فى تضاعيف ذلك ، وفى سعة الاستقراء ما يطمئن من غلواء هذه القواعد التكاثرية ، والأرصاد التى قد تحكم بالشذوذ على خير النصوص وأصح اللهجات .

وهكذا تسير فتجد يقظة شاملة ، وتنهياً يأخذ بأفاق اللغويات والفلسفة والتاريخ ، ويحاول التجديد حتى فى الدراسات الشرعية الإسلامية .

وعلى هذا الأصل العام ، والشعور بالمسئولية العلمية ، وفى يقظة الضمير الجامعى الأصيل ، أخذ أساتذة « كلية دار العلوم » ينشرون بحوثهم تباعا ويستبقون إلى التأليف ، والترجمة ، والنشر ، ويقفون ؛ كل فى دائرة اختصاصه ، برقب تاريخ مادته ، ونموها . ويأخذ بيد طلابه فى سبيل الجد ، ومحاولة الابتكار ، ولعله يريد أحيانا أن يسبق الزمن ليموض مافاته فى ميدان النضال ، حتى يخلف وراءه فى تاريخ الكلية ، أو فى تاريخ العلم آثاراً تفيد العلم فائدة محققة ، ذلك لأنهم يعرفون حقاً أن الأستاذية تكليف لا تشریف ، وأن كرسىها زعامة فكرية ، وقيادة منهجية ، وأنها حلقة

وضاءة ، ولكنها صريخة لمن يقدرها وينبغي بها ، ثم يكون بها من رجال المتن والسند في سيرة العلم ورواياته ، ولكنها أيضاً مساءة كبرى لمن يتولاها رقيقاً رقيقاً ، ويأخذها سهلة هيئنة ، ويكون بها « مدرساً » يعيش على تراث الماضين وحطامهم لا يدعو إلى حق العلم ، ولا يضع في بنائه لبنة أو لبنات . هم عرفوا ذلك فتصوفوا في محاريب الدرس أو كادوا ، ولكم يمجبك أن تجلس إليهم فتسمع منهم النادر اللطيف ، وتجادلهم فتعرف مقدار بلائهم فيما يمارسون ، من بحث دائب ، وعناء مبير .

والشباب من هيئة التدريس ، ماشائهم ؟ هؤلاء هم الذين تلقوا الحياة الجامعية في شببتهم وتلقاها غيرهم على الهرم ، فكان على هذا الشباب أن يستأنى ، وأن يلتزم الأصول الجامعية ، يلتزمها دارساً ومدرساً ثم أستاذاً وقد فعلوا ، فتوافرت لهم دراسات عليا في مصر وفي أوروبا ، تخصصوا فيها ، ولا يزال بعضهم يعد بحجته للظفر بالدرجات العلمية ، وهم جميعاً معقد الرجاء ، ومناط الآمال ، تفتظروهم تبعات ثقال يجب أن يستعدوا لها ؛ إنها تبعات تتضاعف كلما تقدمت الدراسات العلمية في الجامعة وخارجها ؛ وكلما تكشف من عناصر الحضارة الإسلامية والإنسانية ومقوماتها ، ما يحملهم على إعادة النظر فيما قيل أو تقرر ، وعلى أن يضيفوا إلى ما عندهم جديداً ليسايروا ركب الحياة المتجددة السريعة ، وإلا — لا قدر الله — سقطوا في منتصف الطريق .

ولأستطيع أنا ، ولا يستطيع غيري ، أن يصور مقدار ابتهاجي كلما لقيت أحداً يتقدم لنيل درجة جامعية ، أو يصدر بحثاً أو مؤلفاً ، أو يناقشني في مسألة علمية أو منهج دراسي ، أو يتعقبني فيما أقول أو أكتب ، فذلك كله دليل الحياة ، وممة النشاط ، وداع إلى اطمئناننا نحن الشيوخ ، وثقتنا في مستقبل كريم لهذه الدراسات الإسلامية إن شاء الله تعالى .

أقول هذا كله ، وأما هذا البحث لواحد من شباب المدرسين بكلية دار العلوم ، أما البحث فهو : « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي » وأما الشاب فهو « الدكتور بدوى طبانة » .

وأحب أن أقدم بين يدي هذا البحث ما يبين اتجاهه من قريب ، فنذ عهد بعيد ، وحين قامت الجامعة المصرية ، رأينا أن يدرس كل من النقد الأدبي والبلاغة دراستين : تاريخية وفنية ، يفرد لكل درسه ، وتتعاون الدراسات كلها على إعادة النظر في قديم هذين العلمين ، وإعادة وضعهما من جديد ، وقدمنا ما يوضح المنهج والمادة ثم ، نشرنا ذلك منذ سنة ١٩٣٩ ، وكان علينا متابعة هذه الدراسات عساها أن تبلغ الغاية يوما ما .

وصار على الدكتور بدوى طبانة بمقتضى تخصصه أن يسهم في هذه الدراسة بنصيب لعله أن يكون إيجابياً أصيلاً ، ولعله يرضى نهمة العلمى ، وتعلقه بأسباب الجهد والمجد ، ولعله يدخل تاريخ البحوث النقدية والبلاغية ، وقد أصدر بعض ذلك قبل أن ألقاه وأعرفه في كلية دار العلوم ، أصدر بحثه في « أبى هلال العسكري ومقاييسه البلاغية » الذى نال به درجة الماجستير ، وأصدر بحثاً آخر عنوانه « دراسات في نقد الأدب العربى » .

ثم تقدم لدرجة الدكتوراه بهذا البحث الذى أقدمه للقراء والدارسين وإذا كان قدامة بن جعفر حلقة في تاريخ النقد الأدبي فقد صار من الحتم الواجب أن يخضع بحثه لهذا المنهج التاريخى ، وصار على الدكتور بدوى طبانة أن يضع قدامة موضعه من تاريخ النقد الأدبي ، فيصله بسابقه ،

ولاحقيه ، ومعاصريه ، ليبين ماذا أخذ قدامة ، وماذا أعطى ، وماذا ابتكر ، ومقدار ماله من أصالة أو تقليد . وهل تقدم بالنقد أو انحرف به ، وأخيراً إلى أى الجانبين كان قدامة أشد ميلاً . إلى جانب التشريع أم إلى جانب التقدير . . . وليس ذلك بالأمر اليسير ، فإن تصور المنهج وحده وفقه فلسفته ومنزاه ، أمر خطير ، بل هو أخطر شيء فى البحوث الجدية وربما كان درس المناهج — لذلك — أول الدروس الجامعية وأساسها ؛ فإنه هو المنطق التطبيقي الذى ينظم الدراسة ، ويسدّد سيرها ، ويصل بها إلى أهدافها المقررة .

ثم كان لابد لبداية طبانة أن يوثق الآثار العلمية والنقدية لقدامة قبل أن يقيم عليها بحوثه ، ويدير كلامه ، وقد بذل فى ذلك ما وسعه من جهد وما احتمله من عناء .

وإذا كانت آثار قدامة بن جعفر ثمرة التفاعل بينه وبين بيئته الثقافية والأدبية . فقد وجب على الزميل طبانة أن يُلمّ من عناصر البيئة والسيرة لقدامة بما يشرح آثاره ، ويردها إلى مصادرها الشخصية أولاً ، ثم الإسلامية : من عربية وأجنبية ثانياً .

وقد كان فى سيره دقيقاً ، إذ حرص على مسابقة قدامة خطوة خطوة ، ومسألة مسألة ، يناقشه الحساب ، ويلقاه رفيقاً مرّة ، وعنيفة أخرى ، ويردّه إلى أصل عربي حينا أو يوناني حينا آخر ، فإذا وجد له جديداً عرفه له أو تعقبه فيه ، حتى إذا أتم استقراءه أخذ يستنبط من ذلك القوانين ويلخصها ، ثم يضع صاحبَه موضعه بين البلاغة والنقد ، وأخيراً يبيّن مكانة هذه الحلقة فى سلسلة البحوث النقدية التى امتدت من القديم إلى الحديث .

وأشهد ، لقد كان بدوى طبانة جاداً في بحثه ، مستجيباً لكل ما يطلب منه من مقومات رسالته ، يناقش النهج والمادة ، فإذا اقتنع ، وقرأ ، وفقه ، كتب فأحسن الكتابة ، وعرض فأجاد العرض ، وهنا تراءى لك شخصية الواصل بنفسه ، الطمئن إلى عمله ، المخلص لعمله ، حتى كانت مناقشته العلنية امتحاناً عنيفاً ، وصراعاً علمياً دقيقاً ، انتهى إلى منحه تقدير (ممتاز) .

ولست أرى هذه الرسالة ، فقد يجد فيها القارئ مأخذاً هنا أو هناك ، ولكن ما حيلتنا وقد تفرد الله بالكمال ؟ وموضوع البحث بحال لاختلاف وجهات النظر ؟ . وحسب الإنسان أن يجتهد ، فإن أخطأ فله أجر الاجتهاد ، وإن أصاب فله أجر الاجتهاد والتوفيق . بل أزيد على ذلك ما قلته في غير هذا المقام : من أن الخطأ الذي ينشر في مصطرح الآراء كثيراً ما يكون وسيلة للصواب ، وهذا فضل لناشره الذي تقدم به بجتهداً ، واحتمل تجربته صابراً ، فأصلحه غيره ، أو تنبه هو إليه . فأعاد فيه النظر والاجتهاد .

أما بعد : فقد طال بي السير ، وربما شطّ بي الاستطراد ، وقبل أن أترك القلم لأبد أن أهنيء دار العلوم بشبابها ، وأهنيء الدكتور « بدوى طبانة » بما أصاب من توفيق ، وأرجو أن تسير هذه القافلة : من شيوخ دار العلوم وشبابها ، بجدة محققة رسالتها في ظل حياتها الجامعية الجديدة ، وكل من سار على الدرب وصل ما

أحمد الساب

مقدمة الطبعة الأولى

١ - موضوع هذا البحث « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي » ويظهر من هذا العنوان أن البحث يهدف إلى غايتين :

أولاهما : الكشف عن شخصية قدامة وحياته الخاصة ، ووصف البيئة التي عاش فيها ، والتيارات المختلفة التي تجاذبتها ، وألوان الثقافة السائدة فيها ، ثم التعريف بالآثار العلمية التي خلفها . وذلك هو موضوع الباب الأول من هذه الدراسة .
والأخرى : التعريف بقدامة باعتباره حلقة من حلقات النقد الأدبي ، ووضعه موضعه في تاريخ هذا الفن ، ودراسة جهوده ، وبيان أثرها في تطور النقد ، والكشف عما يكون لها من علاقة بالفكرة النقدية المعاصرة ، أو بالفكرة البلاغية ، والنظر بعد ذلك فيما توحى به تلك الدراسة من تجديد في النقد الأدبي . وذلك هو موضوع الباب الثاني .

٢ - وترجع أهمية هذا الموضوع وجدارته بالبحث وبذل الجهد إلى أسباب كثيرة، منها أنه يتصل بشخصية لها منزلتها بين نقاد الأدب العربي، ومنها أن الآراء النقدية أو البلاغية الصادرة عن هذه الشخصية كان لها شأنها في القرن الرابع الهجري ، وبقي لها هذا الشأن في ميزان البلاغة والنقد في القرون التي وليته وكانت مثار جدل كثير . ومنها أن قدامة كان صاحب أول كتاب عرفته العربية في نقد الشعر ، وهذا النقد يشرع في مجال النقد منهجاً جديداً ، ويتصف بصفات ذاتية وموضوعية ذات طابع خاص ممتاز ، ومنها بيان ما لهذا الرجل

من أصالة وغيرها ، وبجلية منزلته في هذه الدراسات ، وبخاصة أن ما دار حوله من جدل قد غشاه بكثير من التموض .

ومع تلك المنزلة للرجل أو لفكرته قاني وجب قدامة لم يظفر بالمنايا الجديدة به ، وإن عرض له بعض المعاصرين بمحاولة تحقيق حياته ، أو دراسة آرائه فقد شابت التحقيق شوائب دفعت إليها العجلة وحب السبق والانفراد ، وهما مطية الزلل في التحقيق الذي يستلزم التثبت والاطمئنان ، وأما الآراء فقد عولجت علاجاً أبعد ما يكون عن الفحص والتدقيق ، لأنها عرضت عرضاً تاريخياً عاماً ، واجتزأ كاتبوها بالنظرة السريعة إلى ما أخذ أشار إليها الأقدمون ورددوها ، وإن كان فيها شيء من الحق ، فإن بعض الحق أقرب شبهاً بالباطل منه بالحق ! ثم أملت عليهم تلك النظرات أحكاماً تعد في شرعة الإنصاف إجحافاً وظلماً .

وقد جعلت تلك الآراء أممي ، ومعظمها ينفر في البحث ويرغب عنه ، فمن قائل إنها فكرة أجنبية ومقاييس غريبة ، لا تلائم الأدب العربي وطبيعته . ومن قائل إن أهم كتب قدامة أملت فيه فكرة منطقية بعيدة عن روح الأدب والنقد ، ومن قائل إن « نقد الشعر » كان جنائياً على النقد ، وأنه أفسد الأدب كما أفسد النقد .

وقد جعلت تلك الكلمات تجري على السنة الدارسين ، وكأنها تقليد لازم ، وحقيقة لا مناص من التسليم بها .

وقد كان بعض ذلك كافيًا في تشييط الهمة ، وصرف الجهد عن هذا العمل إلى عمل آخر قد يكون أقرب سبيلاً وأجدى نفعا ، لولا أنني رأيت أن استقاء الفكرة من موردها أولى من اجتدائها من الواردين ، فكان من إدامة النظر والفحص والتدقيق ما هدى إلى آفاق جديدة ، ووقف على كلام غير ما كان يقال ،

وعرف بآراء جديرة بالنظر والاعتبار ، تكون منها أخيرا البحث الذي تجده بين يديك .

٣ — وربما كان من عوامل تشجيعي على خوض هذا البحث طبيعة عملي في تدريس البلاغة والنقد ، وهي تلزم دائما بالبحث والتنقيب في آثار السلف للكشف عما فيها من كنوز تفيض عنها غبار السنين ، ونصلها بما يمكن أن توصل به من رأى جديد أو فكرة مستحدثة ، لنصل غدنا المؤمل بأمننا الحافل . وهذا فيما أعتقد جزء من رسالة دار العلوم في بث الفكرة القومية وإحياء الثقافة العربية ، في حياتها الجامعية الجديدة . وقد أسلفت في هذا السبيل بحثا في كتابي « أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية » الذي قلت في مقدمته : إن الشخصية في هذه الدراسة غير مقصودة لذاتها ، وإنما المقصود تتبع تفكيرها والوقوف على مصادرها ومواردها باعتبارها ظاهرة فكرية في حقبة من الزمن . على أن دراسة الشخصيات في مثل هذا الاتجاه أجسدى وأنفع ، حتى تكون الجزئيات مفهومة قبل معالجة الكليات . ومن الخير أن نفرّد لكل شخصية من تلك الشخصيات الفكرية ما تستحق من دراسة خاصة ، حتى إذا اكتملت تلك الدراسات كان من اليسير أن نستخلص منها ما نريد استخلاصه من أصول النقد وأساليبه بصفة عامة^(١) وهذا ما أقوله اليوم وأنا أقدم بحثي في « قدامة ابن جعفر والنقد الأدبي » .

٤ — أما منهج البحث فإنه يخضع بعامة للطريقة التاريخية ، التي تقضى بتتبع فن النقد منذ نشأته إلى عهد قدامة ، وتتبع جهود قدامة في ضوء ما سبقه وما عاصره من جهود ، وما حاول قدامة أن يتقدم به إلى مجال النقد ، ومقدار أثره فيمن يليه ، وكل ذلك في دائرة البحوث العربية القديمة ، ثم في ضوء

(١) انظر كتابنا « أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية » ١٢

ما انتهت إليه البحوث النقدية والبلاغية في العصر الحديث . وقد استدعى ذلك ضرورة الإلمام بتاريخى النقد والبلاغة بمقدار ما يقوم هذا البحث ، كما اقتضى الاستئارة بما كتب حديثاً في تلك الفنون وتبع قدامة مسألة مسألة .

• — وقد اقتضى تحقيق الجانب التاريخى من الموضوع الرجوع إلى مصادر كثيرة من كتب التاريخ والسير والأدب التى عرضت للكلام عن قدامة أو من كانت له به صلة ، أو ورد اسمه فيها عرضاً أو قصداً ، وفى مقدمة تلك المراجع :

(١) كتاب «الفهرست» لمحمد بن إسحاق النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ « طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ » .

(٢) كتاب « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ « طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ » .

(٣) كتاب « المنتظم » لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ : مصورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٩٦ (تاريخ) .

(٤) كتاب « الإيضاح » لناصر بن عبد السيد الطرزي المتوفى سنة ٦١٦ هـ : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٩ (أدب) .

(٥) كتاب «معجم الأدباء» لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ : طبع دارالمأمون بالقاهرة

(٦) المطايا السنية والمواهب الهندية في المناقب اليمنية للملك السلطان الأفضل العباس ابن الملك المجاهد على المتوفى سنة ٧٧٨ هـ : مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥١ (تاريخ) .

(٧) الوافي بالوفيات للصفدى : مصورة شمسية رقم ١٢١٩ (تاريخ) بدار الكتب

(٨) كتاب «عقد الجمان» للعيني (٨٨٥٥ هـ) مصورة شمسية رقم ١٥٨٤ بدار الكتب .

(٩) كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لملا كاتب جلبي « طبعة الاستانة . ١٣١ هـ » ، وقد رجعت إليه في تحقيق كتب قدامة وآثاره .

ومن أهم ما رجعت إليه من آثار المعاصرين البحث الذى كتبه الأستاذ عبد الحميد المبادئ تحت عنوان « تحقيق فى حياة قدامة » وجعله مقدمة للكتاب الذى نشره مع الدكتور طه حسين باسم « نقد النثر » : الطبعة الثانية سنة ١٩٣٧ م .

٦ - وفى دراسة النقد الأدبى كان عمدة البحث فيها ما حفظ التاريخ من آثار قدامة ، وفى طبعة تلك الآثار :

(١) كتاب « نقد الشعر » الذى اطلعت منه على ثلاث طبعات : الأولى : بمطبعة الجوائب (قسنطينية ١٣٠٢ هـ) عن نسخة خطية فى كوبرلى (رقم ١٢٤٥ - ٢)

والثانية : بالمطبعة المليجية (القاهرة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م) وفى أولها ترجمة وجيزة لقدامة وبحث موجز فى النقد الأدبى بقلم « محمد عيسى منون » وفى حاشيتها تفسير لبعض الكلمات .

والثالثة : بمطبعة أنصار السنة المحمدية (القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م) وقد أشرف عليها « كمال مصطفى » ونشرها مكتبة الخانجي^(١)

وانطبعتان الأخيرتان منقولتان عن طبعة الجوائب . وقد اعتمدت فى أرقام صفحات نقد الشعر الواردة فى ثنايا الطبعة الأولى من هذا البحث الطبعة الثالثة إذ هى التى تيسر لى اقتناؤها إذ ذاك والتعليق عليها ، وهى تقع فى نحو ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط ، وقد استظهرت على الاطمئنان على صحتها وتوثيقها بأقوال قدامة والنصوص التى نقلها عن نقد الشعر بعض العلماء والمؤلفين ، وأهمهم فى تلك الناحية المرزبانى ، وهو قريب عهد بقدامة « توفى المرزبانى ٣٨٤ هـ » فى كتابه

(١) طبع هذا الكتاب طبعة آية محقق فى مطبعة بريل بمدينة ليدن سنة ١٩٥٦ بإشراف وتحقيق الدكتور . س . ا . بونيباكر (انظر مقدمة الطبعة الثانية هـ) وقد اعتمدنا عليها فى أرقام صفحات نقد الشعر الواردة فى ثنايا هذه الطبعة الثانية .

« الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء » وابن رشيق ، وابن سنان الخفاجي من علماء القرن الخامس في كتابيهما « العمدة في صناعة الشعر ونقده » و « سر الفصاحة » .

(ب) كتاب « الخراج وصناعة الكتابة » وهو كما ذكر ياقوت كان ثمانى منازل ثم أضاف إليها قدامة تاسعة . والموجود من تلك المنازل أربع : الخامسة ، والسادسة ، والسابعة ، والثامنة ، في مصورة شمسية محفوظة في دار الكتب المصرية (رقم ١٩٧١ فقه حنفى) ومثبت عليها اسم الكتاب ومؤلفه وتاريخ وفاته هكذا « كتاب صناعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ » وتلك المصورة مهداة لدار الكتب من الأمير عمر طوسون فى ٣ / ٧ / ١٩٣١ . وهى منقولة عن نسخة حسنة الخط ، لم يعرف تاريخ نسخها . وكتب ناسخها فى آخرها ، وهو خاتمة المنزلة الثامنة « قد تم كتاب الخراج فى غرة شهر ربيع الأول فى دار العلية الإسلامية فى يد أقل الخليفة ، بل لا شئ فى الحقيقة ، عبد الله بن مرزا محمد الخولى . حسبنا الله . نعم الوكيل . نعم المولى ونعم النصير » . وقد انتفعت به فى الوقوف على ثقافة قدامة العامة والفنية وطبيعة عمله فى الدواوين ، وفوائد أخرى كثيرة .

(ح) كتاب « الألفاظ » كما ذكر اسمه المطرزي ناصر بن عبد السيد ، أو « جواهر الألفاظ » كما كتب على النسخة المطبوعة فى القاهرة « مطبعة السعادة ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢ م » عن نسخة خطية عثر عليها السيد أمين الخانجي فى أثناء رحلته إلى العراق ، وأشرف على تحقيقه الأستاذ « محمد محي الدين عبد الحميد » ، وهو معجم فى الألفاظ والتراكيب العربية عدد صفحاته ٢٥٢ صفحة من القطع الكبير ، وقد انتفعت به فى الوقوف على ثقافة قدامة اللغوية ، ونظريته فى الجرس وموسيقى اللفظ ، ومعرفة بعض ضروب الحسن البياني التى لم يرد ذكرها فى نقد الشعر ، وأمثلة من المنشور لما ورد فيه .

وعذا كتب قدامة استشرت طائفة كبيرة من الكتب النقدية والبلاغية

تمثل المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية في دراسة الأدب العربي في القديم والحديث ، وبعض ما تيسر لي الاطلاع عليه مما كتب في اللغة الانجليزية في النقد والبلاغة مما أثبت أرقام صفحاته في الهامش ، وسجلته كاملاً آخر البحث في ثبت كامل ، استوفى أسماء الكتب ومؤلفيها وطبعاتها .

وبعد ؟ فهذا موضوع البحث وهدفه ، وذلك منهجه ، وتلك مصادره ، ذكرتها في إجمال ، ثم يأتي تفصيلها في الأبواب والفصول التالية .

* o *

ومما يقتضيه الوفاء والاعتراف بالفضل لذويه أن أتقدم بالشكر إلى أستاذ من أساتذة الجيل ، يعرفه العلم باحثاً منقياً ، ويعرفه العلماء مرشداً وهادياً ، وهو السيد « الأستاذ أحمد الشايب » الذي أشرف على هذا البحث ، وشارك في رسم خطته ، وذلك بفزاره علمه وسماحة نفسه كثيراً من عقباته ، ولعلّي وقفت إلى تحقيق بعض آماله في نضج هذا البحث واستوائه ، جزاه الله عني وعن العلم خير ما يجزي به العلماء المخلصون . والحمد لله حمد الشاكرين .

بروفيسور الطباعة

مصر الجديدة } ١٧ من جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ
٢٢ من يناير ١٩٥٤ م

تمهيد

ربما كان البحث في خصائص النقد الأدبي والبلاغة وموضوع كل منهما ووظيفته أجدى من الحديث في الحدود والتعريفات ، ذلك بأن الدارس يجد نفسه أمام سيل من الحدود المختلفة باختلاف الدارسين واختلاف عصورهم وأجيالهم ، ولما يستقرّ الوضع لدى الأمم المختلفة ولا عند النقاد ، عند تعريف واحد يرتضونه ، حتى في الأمة الواحدة ، وفي العصر الواحد . ولا ينتظر هذا الإجماع في أمور تتعلق بالفنون وتقديرها فيما بعد ، لأن هذا التقدير مرجعه إلى طبيعة تلك الفنون ، التي يصل تأثيرها إلى القلب ، وتؤثر في العواطف والشاعر ، قبل أن تلجأ إلى استشارة العقل والتفكير ، وإن كانت معالمها وخصائصها ماثلة في النفوس ، واضحة في الأذهان .

إذا مر الأديب بتجربة من التجارب ، فمّبر عنها في صورة من الصور الأدبية ، فقد يكون عرضه مجرد إشباع عاطفة فطرية في التعبير عن النفس ، وقد يكون هدفه من تصوير تلك التجربة أن يوحى إلى مستقبل عمله الأدبي بالتأثر بالتجربة التي مر بها ، والصورة التي أبرز فيها تلك التجربة .

وكثير من القراء أو السامعين تحدث في نفوسهم الآثار التي أرادها الأديب ، فيرضون أو يسخطون ، من غير أن يحدثوا أنفسهم عن سر هذا الرضا ، أو مبعث ذلك السخط ، وعدد قليل منهم يسأل نفسه عن العوامل المثيرة التي تركت في نفسه هذا الأثر .

وإذا كان الأدب فنا يحقق هدفه بواسطة العبارة ، فمن جملة تلك الأسئلة أعن قوة في المعنى حدث هذا التأثير ؟ أم عن ابتكار في رسم الصورة ؟ أم عن روعة في تاليف الخيال ؟ وهل امتاز العمل الأدبي من الناحية التعبيرية ، فاستخدمت فيه أساليبه الخاصة وألفاظه المعبرة ، التي تتميز عما ألف الناس في حياتهم اليومية من ضروب التعبير ؟ .

وهم في أكثر الأحيان لا يجدون الأثر الذي كانوا يَشُدُّونه كاملاً في كل جزء من أجزاء النص الذي قرءوا أو سمعوا ، وإنما يجدون تفاوتاً في الحسن بين أجزائه ، واختلافاً بين القوة والضعف في الفكرة أو في تصويرها .

ولو فرضنا أنهم وجدوا الحسن كاملاً في نص فلن يجدوه على هذه الدرجة من الكمال في نص آخر للأديب نفسه . وسيجدون أنفسهم أخيراً أمام عدد من الشعراء أو النثر تفوقت منازلهم بين أعلى درجات الكمال وأحط مراتب النقص ، فيسألون أنفسهم عن سر السمو في عمل من الأعمال الأدبية ، أو عند أديب من الأدباء ، وعن أسباب الاتضاع في أعمال أخرى أو عند أدباء آخرين ، فيصفون ما رأوا وما أحسوا .

وقد يحكمون على الأثر الأدبي بحسب أثره في نفوسهم وإثارته لمواطنهم وذكرياتهم ، وينددون بالقبيح . وهذا هو النقد « Criticism » وهو عمل من الأعمال الأدبية ، يظهر فيه الجانب التطبيقي للمشاعر أو للتجارب والمعارف والثقافات عند الناقد أكثر من ظهور الجانب النظري ؛ لأن المفروض ابتداءً أن النص الأدبي يكون ماثلاً بين يدي الناقد ، يدرسه ليفهمه ، ويحلله ليتف على نواحي الجمال فيه ، ثم يعبر عن رأيه فيه ، لأن الغرض من عمله هو تمييز القيم الأدبية الصحيحة .

ويعر النقد بمثل ما تمر به الحياة النفسية من مراحل المعرفة أو الإدراك ، ومرحلة الوجدان أو الشعور بالمعظمة أو الانحطاط ، ثم مرحلة الإرادة ، ويقابلها هنا الحكم الذي يصدر على الأديب ، أو على عمله الأدبي .

وقد تتسع دائرة النقد الأدبي ، فيشمل « تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية ، وبيان قيمته الموضوعية وقيمه التعبيرية والشعورية ، وتمييز مكانه في خط سير الأدب ، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته وفي العالم كله ، وقياس مدى تأثيره بالحيط ، وتأثيره فيه ، وتصوير سمات صاحبه ، وخصائصه

الشعورية والتعبيرية ، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه ،
والعوامل الخارجية كذلك^(١) .

* * *

وإذا تعددت دراسة الآثار الأدبية ، وقيست أجزاؤها ، ووزن بعضها
ببعض ، وجد الدارس فيها ملامح متشابهة ، كانت هي السرف في التأثير ، ومبعث
المتعة والإحساس بالجمال .

وقد يحاول الناظر في تلك الآثار أن يجمع شمل تلك الملامح المشتركة ، وأن
يؤلف بينها ويجمع منها قواعد وأصولا ومقاييس ، يحثيها الأدباء ، وينتفعون
بها إذا حاولوا عملا أدبيا .

وكثيرا ما يضم هذا الدارس إلى ما استخلصه بذوقه وثمرة ثقافته وإطلاعه
وإعمال عقله ثمرة اجتهاد غيره ، إذا ما رآها متفقة مع ما اهتدى إليه من الآراء ،
ثم يعمل على تنظيم تلك الآراء ، فيضم منها الإلف إلى إلفه ، ويكُونُ من ذلك
أبواب وفصول وقواعد ، تصطبغ بصبغة العلوم ذات الموضوعات المحدودة ، والتي
تعنى بالحدود والتقسيم ، لتكون صالحة للأخذ والتلقى والاستظهار والاختبار ،
وحينئذ يبرز جانب العقل والتفكير ، ويتضاءل حظ الإحساس والتذوق والتأثر العاطفي .
وخلاصة تلك الجهود الفردية والمشاركة التي صبت في هذا القالب العلمي هي
ما يعرف بالبلاغة « Rhetoric » .

وفي تلك الحالة لا يوضع النص الأدبي كله بما فيه من حسن وقبح بين
يدى الدارس ، لينظر في محاسنه ومعايبه ، أو يحكم عليه بالجودة أو بالرداءة ، كما كان
يفعل به الناقد ، وإنما يكتب بأن يختار من الحسن فقط شواهد يتمثل بها لتأييد
القواعد ودعمها . ولا يقف الاستشهاد على أبيات من قصيدة واحدة ، أو عمل أدبي

(١) النقد الأدبي : أصوله ومناهجه الأستاذ سيد قطب : ص ٦

واحد ، لأن الأمر هنا قد خرج من دائرة النظرة الخاصة في أثر خاص إلى ميدان التعميم الذى يشمل الأدباء جميعا ، والآثار الأدبية عموما ، فتختار لهذه الغاية أبيات من قصائد مختلفة ، أو فقرات من المنشور لأدباء مختلفين ، تلائم كل مبحث من مباحث البلاغة .

* * *

ويظهر لنا من هذا تلك الصلة الوثيقة التى تصل النقد بالبلاغة ، حتى لقد يبدو من المسير محاولة التفريق بينهما ، أو وضع حد يفصلهما ، لأن النقد كما رأينا هو المنبع ، وهو الأساس الذى استقت منه وقامت عليه قواعد البلاغة .

وإذا كان هدف (النقد) البحث عن الجمال ، ومحاولة إحصاء مظاهره ، والإشادة به ، وذكر القبح فى معرض التنديد به والتحذير منه ، فإن (البلاغة) هى ثمرة هذا البحث ، ومجتمع مظاهر الجمال ، صيغت فى فصول وأصول وقواعد لكنها ليست قواعد قد سنّها الفكر أوّلا ، ليجرى عليها الأدب ، بل إن طبيعة الأدب موجودة من قبل ، سواء بُحِثَتْ أم لم تبَحْث . شأنها فى ذلك شأن جميع الأشياء . فقواعد الأدب هى الأجوبة التى يهديننا إليها عقلنا حينما نتساءل عن ماهية الأدب وخصائصه^(١) .

وقد سى « كرمى » مثل هذا البحث ، الذى نراه ينطبق على ما يراد بالبلاغة « نظرية الأدب » ، وقال عنها : إنها أسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شىء يتعلق بالأدب ، ثم الإجابة عنها كذلك إجابة عقلية . إذا كانت تلك الأسئلة تتدرج من الأدب العام إلى القطعة الأدبية الخاصة ، وسمى النوع الثانى الذى يتدرج من الخاص إلى العام « النقد الأساسى » « Criticism Proper » .

ولعل المقصود بعبارة « نظرية الأدب » التى قلنا إنها يمكن أن تنطبق

(١) لاسل آبر كرمى : قواعد النقد الأدبى ٨ « ترجمة الدكتور محمد عوض محمد »

على ما يراد بالبلاغة ، أنها دراسة نظرية للأدب ، لأنها وضع القاعدة ، ومحاولة تطبيقها ، كما يفعل بالنظريات الهندسية تماما ، إذ هي تفترض الشكل الخيالي ، وتضع له القاعدة ، ثم تحاول تطبيقها عمليا .

ويرى الأستاذ ونشستر Winchester أن النقد يختلف عن البلاغة من ناحيتين رئيسيتين :

(١) أن البلاغة تهدف إلى أن تعلمنا كيف نكتب ، أما النقد فإنه يفترض أن الكتابة قد تمت ، ثم يعلمنا المبادئ التي تستطيع بمقتضاها أن نقدر ما هو مكتوب .
(٢) أن البلاغة تعنى في الغالب بالأسلوب ، فإذا افترضنا أن رجلا لديه ما يريد أن يكتبه ، ولكن لا يحاول أن يحكم على ما إذا كان جديرا بالقول أم لا ، فإن البلاغة تعلمه كيف يكتب ، أو يقول . والنقد يعالج أولا المادة التي يكتبها إنسان ما ، والأثر الذي يمكن أن تحدثه في القارىء .

وعلى الرغم من أن النقد أيضا يناقش الأسلوب أو الشكل ، فإنه يعالجهما بشكل أوسع مما تعالجهما به البلاغة . والنقد لا يعالج تركيب الجمل والفقرات ، أو آلية الأسلوب ، بقدر ما يعالج تلك الصفات غير الملموسة ، التي تظهر من التعبير الخفى عن الآراء والمواقف والجمال ، مما لا يمكن إخضاعه للتحليلات الجافة للقواعد البلاغية .

وعلى ذلك فإن مجال النقد أوسع من مجال البلاغة ، ولكن يبدو أن مبادئه أغرض من قواعد البلاغة^(١) .

* * *

ومثل هذا الذي قدمناه صورة حقيقية تمثل خط سير دراسة الأدب العربى ، وتطوره من النقد إلى البلاغة ، فقد ابتدأت تلك الدراسة بالآراء الفردية والنظريات

(1) Winchester, *Principles of Literary Criticism*, 16—17.

المحدودة في جزئيات من العمل الأدبي ، إلى الحكم على الأديب بمقتضاها بالثناء عليه إذا أصاب توفيقاً في بعض الأوضاع العنوية أو الشكلية ، على حسب المقاييس التي يعرفها الخاصة في تذوق الأدب والحكم عليه ، أو عيبه إذا خالف تلك الأوضاع الجميلة في نظرهم ، أو خرج على المؤلف من ذوقهم .

ثم تغضت تلك الآراء الفردية وتماسكت ، وجرت على ألسنة الرواة ، كما جرى المأثور من الأدب نفسه على ألسنتهم ، حتى إذا رأوها جديرة بالتسجيل حرصوا على تسجيلها ، كجزء من تراثهم ، الذي يعتزون به في عصور التأليف والتدوين ، وأخذوا يزيدون فيها ، وينقصون منها ، ويبحثون عن مواطن الحسن التي خفيت على السابقين ، فتكلموا في عناصر الأدب ، ومنزلة كل عنصر منها في تقويم العمل الأدبي ، ونمت تبعاً لتلك الجهود الثروة النقدية بنمو الحضارة ، وتسرب الثقافات الأجنبية في العلم والأدب ، فشمّل تقدم الفنون الأدبية ، ورجال الأدب ، في مواقفهم وحالاتهم ، وعالجوا كل ناحية من نواحي النص الأدبي ، وكل جزء من أجزائه علاجاً قد يطول ، وقد يقصر .

وكثيراً ما كانوا يخلطون تلك الدراسة بنصائح وتوجيهات يتقدمون بها إلى الأدباء ، ليقتدوا بما فيها من أمارات الحسن التي استحق قوم بها التقدير والخلود ، ولينأوا عن مواطن الضعف التي وقع فيها جماعة قضى عليهم بالفناء ، أو انحطت منزلتهم بين منازل الأدباء .

وقد أطلق على تلك الدراسات اسم « علم البيان » الذي لم تقتصر مباحثه على تذوق الأدب وتمييز جيده من رديئه ، وإنما تعدت تلك الغاية الفنية إلى غاية ديبية هي البحث في إعجاز القرآن ، والوقوف على النواحي التي تفرد بها ، وتميز من سائر فنون كلامهم .

« وسواء أكان علم البيان يدرس لتمييز جيد الأدب من رديئه ، أم كان

يدرس للوقوف على إعجاز القرآن ، فإن الفن هو الذي كان بحرّ كه ، وأصول الجمال هي التي كانت دعامة له . وعلى كل حال فإن « علم البيان » لم يعد رسماً وهداية ، بل تحليلاً ونقداً . وإذا أن محاسن الكلام كثيرة فقد أخذ علماء البيان يتفحصون حصرتها ، ويرجعون كثيراً منها إلى الكلام في الحقيقة ، والمجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والذكر ، والحذف ، والتقديم ، والتأخير ، والفصل ، والوصل ... إلخ . أخذوا يحصون هذه المحاسن ، ليستعينوا بها على تذوق الأدب ، وعلى تذوق الروعة والبهجة في القرآن الكريم . وكذلك صار علم البيان نقداً ، وكذلك دفعته مسألة الإعجاز إلى أن يخوض في تحليل فنون القول ، وإلى أن يعرف ضروبه ومناحيه ومواضع الحسن فيه ^(١) .

* * *

ولعل خير كلام في البلاغة أنها « ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتسكنه في نفسه ، كتمكّنه في نفسه ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن » .
وجعل حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عباراته رثة ، ومعرضه خلقاً ، لم يسم بليغاً ، وإن كان مفهوم المعنى ، مكشوف المفزى ^(٢) .

ويعلم من هذا أن البلاغة بحث في الوسائل ، ورسم للأصول والقواعد التي يصبح الكلام بها جديراً أن يسم بالحسن ، ويوصف بالجمال . وذلك أن الجمال يبدو في معناه الذي يستطيع أن يغزو قلب السامع ، ويتمكن في نفسه ، أي أنه يستطيع التأثير بالإدراك وإثارة الانفعال . وتلك غاية الفنون ومنها فن الأدب ، وإذا كان لكل فن منها وسيلته ، التي يحقق بها تلك الغاية من إحداث التأثير ، وإثارة الانفعال ، وتحريك الماطفة ، في نفس مستقبله ، فإن للأدب وسيلته الخاصة ، وهي العبارة أو الأسلوب .

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للأستاذ طه أحمد إبراهيم : ص ٤

(٢) كتاب الصناعتين لأبي حلال العسكري : ص ١٠

ولهذا اشترط في تلك العبارة أن تكون حسنة ، وفي الصورة أن تكون صحيحة مقبولة في نظر أولئك الذين مارسوا تلك الصناعة ، وعرفوا مواطن الإصابة منها بحسبهم الفني وثقافتهم الأدبية .

وعلى هذا فإن إفهام المعنى وحده ليس كافيا في الحكم على الكلام بالبلاغة أو الجمال ، لأن العامى واللحان قد يبلغان الإفهام ، ونقل ما يريدان إلى السامع ، كما يستطيعه الأخرس والأبكم والطفل والتمتاع بالعبارة القاصرة ، أو الإشارة الدالة .
وقال بلاغة جمال في المعاني ، وجمال أيضا في العبارة ، ومعرفة لمعاصر الجمال في الركنين ، وإحصاء مظاهرها ، التي يصل بها فنّ الأدب إلى غايته .

* * *

وقد نصوا أيضا على أن البلاغة في الكلام «أن يكون مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته» ، والحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل الراد خصوصية ، وهو مقتضى الحال ، مثلا : كون المخاطب منكرا للحر كحال تقضى تأكيد الحكم ، والتأكيد مقتضى الحال . ومقتضى الحال مختلف ؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافة ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام^(١) .

* * *

وهذا المعنى الذي عرفه البلاغيون العرب من أن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ؛ هو ما يعرفه علماء الغرب ، وعبارة الأستاذ جنجج « Genung »

في تعريفها : البلاغة « Rhetoric » هي فن مطابقة الكلام ، وجعله منسجما مع الموضوع والمناسبة ، ليحقق أغراض القارئ أو السامع^(١)

ولسنا نرى في كلامهم دليلا أنصح على قرب البلاغة من النقد ، وعلى اختلاط مسائلهما من هذا الدليل ، فإن هذا الكلام ، وإن كانوا قد خصوا به البلاغة ، من صميم عمل الناقد ، لأنه هو الذي ينظر إلى العمل الأدبي ، وإلى تركيب الكلام ، وإلى أحوال المخاطبين ، وما تقتضي من أنواع الأساليب .

فإذا استعمل الأديب من الأساليب البيانية ما يناسب موضوعه ، وما يلائم معانيه ، وما يوافق نفسية سامعيه وعقليتهم ، فقد أصاب ، وحكم الناقد عليه بالبراعة وعلى عمله الأدبي بالجودة ، وإلا عابه بالتقصير ، ووصف كلامه بالقبح والرداءة .

ومعنى ذلك أن الناقد هو الذي يطبق الكلام على مقتضى الأحوال ، وهو حينئذ محتاج إلى ثقافة واسعة من المعرفة باللغة وأساليبها ، ومعرفة بالنفوس وطبائعها في هدوئها ونورها ورضاها وسخطها ، ليستطيع التمييز والخم « وتبعض خواص ترا كيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره^(٢) .

* * *

وإذا كان من الممكن كما يرى الأستاذ ونشستر Winchester تحديد دائرة البلاغة ، ومن المسير تحديد النقد ، فإن ذلك يرجع إلى سببين :

(١) أن البلاغة بأوضاعها الراهنة أصبحت علما مستقرا ، وضعت قواعده ونظمت مباحثه ، ووضحت معاله ، ولذلك أصبح مجال التجديد فيها ضيقا محدودا .

(١) Genung, The Working Principles of Rhetoric, p. 1

(٢) انظر : مفتاح العلوم للسكران : ص ٧٠

أما النقد فإنَّ جانب التدوق والتأثر فيه أظهر من جانب المنطق والتفكير ، والدوق الذى يعتمد عليه التدوق عرضة للتغير والاختلاف ، بتغير الأزمان ، وتفاوت الأجيال ، وتباين البيئات واختلاف الثقافات . ولا يزال ميدانه يتسع ، وتبد وفيه اتجاهات جديدة .

(ب) والسبب الثانى أن القواعد البلاغية مستمدة من مواضع الحسن فى كلام السابقين ، وقائمة على أساس من دراسة الأدب القديم وتقاليده التى سبق وضعها . أما النقد فإن سر تجدده ، وسر صعوبة حصر دائرته ، فهو أن الأدباء من الشعراء والكتاب والخطباء لا يزالون يفتنون فى التجديد ، ويتأفقون فى اختيار موضوعاتهم ومعانيهم ، التى يشتقونها من حياتهم ومعلوماتهم وثقافتهم ، وأنار اطلاعهم على نتاج غيرهم من أدباء الأمم الغربية عنهم . وفى هذا الجديد يجد النقاد دائماً مجالاً لدراساتهم . وتجديداً لأحكامهم ، حتى تجارى كل جديد فى الأعمال الأدبية .

وإذا كان النقد يسلك مسلكاً عملياً لأنه يصف النص ، ويحلله ، ويناقشه ويوازنه بغيره ، ويحكم عليه وعلى قائله ، وكانت البلاغة تسلك مسلكاً نظرياً فى وضع القواعد ، والتماس الشواهد لها من النصوص الجيدة ، فإن الذى يجب أن نعرفه هو أن القواعد البلاغية ، وإن حاز وصفها بالنظرية ، لها أساس من الواقع ، فإنها وضعت بعد النظر فى نصوص قيلت ، وفحص عما فيها من أسباب القوة أو الضعف ، وعناصر الجودة أو الرداءة .

وقد عمد أولئك البلاغيون أو النقاد إلى إخفاء أسماء من عرضوا لهم ولأدبهم بالمدح أو الذم . ولا يمكن أن يتصور أن تلك الآراء غير ذات موضوع ، أو أنها عاجت شيئاً لا وجود له ، وأنها وضعت بتأثير التصور والخيال ، فإن الخيال — مهما تكن درجته — يقبس من الحقائق الماثلة والواقع الموجود .

ولا نستطيع أن نتصور أن بلاغياً أو ناقداً بنى من الوهم المطلق نظرية محدودة المعالم واضحة السمات ، وغاية ما يمكن أن يقال أنه نشد الصورة الكاملة

باستعراض صور مشوهة أو ناقصة ، وفي بعض تلك الصور المشوهة أو الناقصة رأى ملامح الجمال أو بعضها ، فجمع الملامح الجمالية من هذه وتلك ، وتاقت نفسه إلى رؤية الحسن موحدًا مجتمعا في مثال ، فرسم هذا الحسن المثالي فيما اقترح من آراء وفيما نظم من نظريات^(١) .

ويلاحظ أن حياة النقد في الأدب العربي صحبت حياة الشعر ، وجرت مع طبيعته ، وتطورت فكرة النقد مع تطور الأمة العربية ، بحسب العوامل التي أثرت في حياتها وعقليتها وثقافتها ، فقد كان النقد في الجاهلية « عبارة عن ملاحظات على الشعر والشعراء ، قوامها الذوق الطبيعي الساذج ، وقد مكن له تنافس الشعراء ، واجتماعهم في الأسواق وأبواب الملوك والرؤساء ، وهذه المصيبة من القبيلة للشاعر ، ومكانة الشاعر ، وكلامه بين البادين . فكان ذلك كله سبباً لتجريد الشعر من ناحية ، ولتعقب الشعراء بالتجريح والتقريظ من جهة ثانية . وكان النقد يتناول اللفظ والمعنى الجزئي المفرد ، ويعتمد على الانفعال والتأثر دون أن تكون هناك قواعد مقررة يرجع إليها النقاد في شرح أو تحليل ، وينتهي إلى بيان قيمة الشعر ومكانة الشاعر بين أصحابه^(٢) .

فلما كان الإسلام اتجه النقد اتجاهًا جديدًا ووضع له أول مقياس تقاس به معاني الشعر ، بعد أن لم يكن هنالك مقياس ثابت متداول يحكم به عليها ، وكان ذلك المقياس هو الدين ، وما ينشأ عنه من أخلاق ، فنظر إلى الشعر على هدى المبادئ التي رسم أصولها ، وما اتفقت فيه روح الشعر مع روح الدين فهو من الشعر في الذروة ، وما خالفه فهو من كلام الفواة الضالين المضلين . ونشأ مقياس جديد لدراسة الأساليب ، ينفرد من المعاظلة ، ويمتد الحوشي ، والسجع الذي كان

(١) انظر كتابنا « دراسات في نقد الأدب العربي » ١٨٤

(٢) أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب : ص ١٠٩

يتكلفه السكبان في الجاهلية ، ويميل إلى القصد والاعتدال في كل عمل مادي أو معنوي .

وفي أيام بني أمية كان لمريد البصرة من الشأن في حياة الشعر واصطراع الشعراء على سبق والغلبة ، ما نال لسرق عكاص في الجاهلية ، حتى اسمر أيضا حياة ، وعمرت مجالس الخلفاء بالشعراء ، ودخل النقد في طور جديد ، كان عظيم الأثر في نشاطه ونموه ، ونشأت علوم العربية ، وقد كانت موادها وسائل للنقد ، وكان النحو واللغة والعروض وقواعدها مقاييس جديدة ، يحكم بها على الشعر . واستمرت تلك المقاييس طوال عهد بني أمية ، وصدرت من دولة بني العباس .

فلما كان القرن الثالث وضحت معالم تلك المعارف اللغوية ، وتقاربت تلك النظرات ، وابتدأ دور التأليف في النقد في هذا القرن ، فإن أقدم ونيفة وصلت إلينا في تلك الدراسات كانت وليدة هذا القرن ، وهي صحيفة بشر بن العتمر (٥٢١٠ هـ) . وإذا تدبرنا تلك الوثيقة وجدناها مجموعة من النصائح تقدم بها كاتبها إلى أصحاب صناعة الأدب . وتلك النصائح تتصل بأنسب الأوقات للعمل الأدبي ، وبالحالة النفسية وتأثيرها في نتاج الأديب ، وتحدث عن الطبع والتكلف ، كما تناولت اللفظ والمعنى ، وجعلتهما درجات ، لكل درجة من المعاني درجة من الألفاظ تناسبها ، ولكل طبقة من الناس طبقة من الكلام ، والمعنى الشريف يتطلب اللفظ الشريف ، ومن حقه أن يصاب عن كل ما يفسده ويهجنه ، ومدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . ونمت بشر في تلك الصحيفة الأديب الذي يستطيع أن يبلغ ببيان لسانه وبإلاغة قلمه ولطف مداخله ، إفهام العامة معاني الخاصة ، ويكسوها الألفاظ الواسطة ، التي لا تلطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن الأكفاء بأنه البليغ التام . وقال : ينبني للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، فيجمل لكل

طبقة منها كلاماً ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار السمعين على أقدار تلك الحالات^(١) .

وهذا الكلام عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، هو الذى عرف به العلماء البلاغة فيما بعد . وكثير من تلك الكلمات الموجزة كان نواة بحوث شاملة ، وموضوعات متسعة الأطراف ، ممتدة الجوانب عند النقّاد والبلاغيين ، فيما بعد .

وشهد هذا القرن مولد التأليف فى الأدب أو فى البيان العربى بأوسع معانيه . فقد ألف الجاحظ (٢٥٥ هـ) كتاب البيان والتبيين ، وألف البرد (٢٨٥ هـ) كتاب الكامل . وهذان الكتابان يعدان موسوعتين من موسوعات البيان ، بل موسوعات الثقافة الأدبية واللغوية . والتشابه بين أسلوبيهما واضح فى اعتماد كل منهما على الرواية ، وحرصه على الأسانيد ، وفى ذلك الأسلوب الاستطردى الذى يظهر فى كليهما ، وإن كان اختلاف فى مادة كل منهما يرجعه اختلاف شخصية مؤلفيهما ، فقد تسلطت على الجاحظ الفكرة الأدبية ، وسيطرت على البرد الفكرة العلمية .

ولا يعنينا البحث فى ذلك بقدر ما يعنينا أن كلا الكتائين اشتمل على وصف كثير من نعموت الجودة ، والتنبية على مواضع العيب والمؤاخذة فى النص الأدبى . كما أن فيهما كثيراً من الموازنات بين النصوص المتشابهة فى مغزاها أو مبناها . ويؤخذ عليهما أن تلك النظرات - سواء أكانت نقدية أم تعليمية -

(١) النص الكامل لصعيفة بشر بن المعتمر فى البيان والتبيين ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٩

مشتورة في ثنأياها ، ويدل ذلك على فقدان الروح العلمى فى التنظيم والتقسيم ،
وهما على كل حال صورة صادقة للمادة المحتشدة فى ذهن كاتبيهما ، وللمصر الذى
ألف كل منهما فيه .

وفى هذا القرن أيضاً ألف ابن سلام (٢٣٢ هـ) كتاب «طبقات الشعراء»
وألف ابن فتيبة (٢٧٦ هـ) كتاب «الشعر والشعراء» ، وهذان الكتابان - كما يبدو
من اسميهما - كتابان فى الشعراء ، أكثر مما هما كتابان فى درس الشعر
ونقده ، والغرض منهما التعريف بعدد من الشعراء ، وشئ من أخبارهم ونصوص
من شعرهم ، وإن كان أولهما يمتاز بتقسيمهم طبقات ، على حسب الإجابة ، أو كثرة
النتاج ، أو القدرة على التصرف فى فنون الشعر ، وإن كان الثانى يمتاز بمقدمته
فى أقسام الشعر بحسب لفظه ومعناه ، وفى بعض ما يجب على الناقد من الحيدة
والاستقلال فى الرأى ، وعدم التقيّد بأراء السابقين ، وفى الشعر المطبوع
والمصنوع ، والتعريف بنظام القصيدة ، وتعليقه ، وعيوب القوافى ، وعيوب الإعراب
بما يقرب من كلام النحاة والعرويين .

وفيه ألف ابن المعتز (٢٩٦ هـ) كتاب «البديع» الذى ذكر فيه محاسن الكلام
التي استقصاها من كلام السابقين ، وجمع فيه بعض ما وجد فى القرآن وأحاديث
النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من
ذلك الذى سماه المحدثون (البديع) ليعلم أن بشارة ومسلماً وأبا نواس ومن تقييلهم ، وسلك
سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه أكثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم ،
حتى سمي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ، ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائى من
بمدهم شغف به ، حتى غلب عليه ، وتفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن فى بعض
ذلك ، وأساء فى بعض ، وتلك عقى الإفراط وثمره الإصراف ، وإنما كان يقول

انشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم
قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ،
وزداد حُظوة بين الكلام المرسل^(١) .

ومن الناحية النقدية نرى أن كتاب «البديع» كان أول كتاب تناول
الأدب تناولاً فنياً، وشرح بعض عناصر الحسن فيه ، وبه انتقل النقد إلى طور جديد ،
هو طور العناية بالصورة، وتوجيهه إلى دراسة الشكل ، وقد كان الجهد كله منصرفاً
إلى نقد المعاني والإشادة بقوتها وفخامتها .

ومن ناحية أخرى يعد كتاب «البديع» أول كتاب في البلاغة العربية ،
وأصبح هذا اللقب فيما بعد علماً على واحد من علومها الثلاثة المعاني والبيان والبديع
ورأينا أن كلمة «البديع» التي أطلقت على تلك المباحث التي تجمع إلى المحسنات
شيئاً من العناصر الأصيلة في الأدب والفن الشعري بوجه خاص ، كالتشبيه
والاستعارة ، والكناية ، كانت ترادف في ذهن ابن المعتز كلمة «الجميل» .

ولا بن المعتز كتاب آخر في النقد غير كتاب البديع ، وهو رسالة نبه فيها
على محاسن شعر أبي تمام ومساويه ، ولم نهتد إلى تلك الرسالة ، ولم نقف على صحة
اسمها ، لكننا قرأنا في آثار قدامة أن له كتاباً في « الرد على ابن المعتز فيما عاب به
أبا تمام »^(٢) . وقرأنا شيئاً من رسالة ابن المعتز المذكورة في كتاب « الوشح »
لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني^(٣) ، وفي هذا الجزء آراء صريحة في النقد ،
لا نجد لها نظيراً في كتاب «البديع» ، فقد عُد فيه بعض أخطاء أبي تمام في المعاني ،
وما أخذه من غيره وادعاه لنفسه ، وشيئاً من الموازنة . وكل ذلك يؤكد ما كان

(١) عبد الله بن المعتز : كتاب البديع ١٦ — طبعة الحلبي .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٣ — طبعة دار الأمون .

(٣) الوشح في أخذ العلماء على الشعراء ٣٠٧ — طبعة السلفية .

يتمتع به ابن المعتز من حسن فني مرهف ، وذوق رفيع في تقدير الأدب ونقده .
ولا تعجلنا هذه النظرة السريعة عن الإشارة إلى كثير من الآثار التي كان لها
أبعد الأثر في حياة النقد والبلاغة ، وهي كتب كانت الغاية منها توضيح المعاني
القرآنية التي خفيت أسرارها في بعض البيئات ، بسبب تقادم العهد بينها وبين الوقت
الذي نزل فيه الكتاب الكريم . أو الدفاع عن إعجازه ، وإثبات تفوقه على
ما عرف من كلام الفحول المشهود لهم بالسبق والإجادة في صناعة الكلام . ومن
أهم هذه الآثار في ذلك القرن كتاب « مجاز القرآن » الذي ألفه أبو عبيدة معمر
ابن النثني ، وكتاب « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة صاحب « الشعر
والشعر » .

في ذلك القرن الذي شهد مولد التأليف في النقد ، ومنطلق البحث في البلاغة
نشأ قدامة بن جعفر ، الذي تركرت في ذهنه تلك العقليات جميعا ، وتأثر بتلك
الآثار وغيرها ، ثم مزجها بشخصيته المستقلة ، وفكره الحر ، وصاغ من كل
أولئك فكرة جديدة شرعت في حياة النقد الأدبي والبلاغة العربية شرعا جديدا ،
ووجهت النقد العربي وجهة جديدة مستقلة عن سائر ألوان المعارف التي كان طغيانها
ظاهرا على آثار النقد قبله .

وخلاصة هذا التمهيد أن الدراسات النقدية انتهت إلى قدامة بن جعفر بالمسائل
الآتية :

- ١ — آراء منشورة جرت على الألسنة ، يفتل عليها الأثر الذاتي والذوق
الفردى ، ثم تناقلتها الرواة ، حتى سجلت على صفحات الكتب في عهد التدوين .
- ٢ — وبظهور الإسلام ظهرت طلائع النقد الموضوعي ، وقياس الأدب بما
يتصل بالإسلام من المثل العليا في الدين والأخلاق .

٣ - ثم كانت مادة علوم اللغة التي نشأت في عهد بني أمية أهم وسائل النقد الأدبي إلى القرن الثالث .

٤ - وظهرت بعض المکتب التي وضعت بعض الأسس لتأريخ الأدب والنظر فيه ، ككتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام وكتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

٥ - التنبيه إلى بعض نواحي الجمال في الفنون الأدبية ، أو في أحاديثها كما فعل الجاحظ في « البيان والتبيين » والمبرد في « الكامل » .

٦ - وبتأليف ابن المعتز كتابه « البديع » وضع أساس النقد البياني ، وابتدأ مذهب الصنعة يزدهر في الأدب وفي النقد .

وبقي بعد هذا أن نعرف قدامة وإفادته من تلك الجهود ، وأثره في بناء صرح النقد الأدبي ، وهو غايتنا من هذا البحث ، وما سنفصل القول فيه بعد ، وما توفيقنا إلا بالله .